المحاضرة العاشرة : النموذج التفاعلي في العلاج الأسري الاستراتيجي

مقدمة

يُعدّ **النموذج التفاعلي في العلاج الأسري الاستراتيجي** من النماذج المركزية التي ركّزت على فهم المشكلات النفسية والسلوكية بوصفها ناتجة عن **أنماط تفاعل متكررة** داخل النسق الأسري، وليس عن خصائص فردية ثابتة. وينطلق هذا النموذج من فرضية أساسية مفادها أن المشكلة لا تكمن في الشخص، بل في **العلاقة**، وأن تغيير نمط التفاعل كفيل بإحداث التغيير العلاجي المنشود.

تهدف هذه المحاضرة إلى تقديم عرض مفصّل للنموذج التفاعلي في العلاج الأسري الاستراتيجي، من حيث جذوره النظرية، افتراضاته الأساسية، مفاهيمه المحورية، آلياته التفاعلية، دوره في فهم الأعراض النفسية، والتدخلات العلاجية المرتبطة به، وذلك بأسلوب موجَّه لطلبة الماستر في علم النفس العيادي.

أولًا: الجذور النظرية للنموذج التفاعلي

تعود الجذور النظرية للنموذج التفاعلي إلى أعمال **مدرسة بالو ألتو**، خاصة إسهامات غريغوري باتسون في نظرية الأنساق والتواصل الإنساني. وقد ساهمت هذه المدرسة في إحداث تحول جذري في فهم الاضطراب النفسي، من تفسير فردي داخلي إلى تفسير علائقي تفاعلي.

كما يستند النموذج التفاعلي إلى **نظرية التواصل الإنساني** التي تؤكد أن كل سلوك يحمل رسالة تواصلية، سواء كان لفظيًا أو غير لفظي، وأنه لا يمكن عدم التواصل. وقد مكّن هذا المنظور من تحليل المشكلات الأسرية من خلال دراسة الرسائل المتبادلة، والتناقضات التواصلية، وأنماط الردود المتكررة.

ثانيًا: الافتراضات الأساسية للنموذج التفاعلي

يقوم النموذج التفاعلي على مجموعة من الافتراضات الجوهرية. أولها أن السلوك الإشكالي هو استجابة منطقية داخل سياق تفاعلي معيّن، وليس تعبيرًا عن خلل فردي معزول. وثانيها أن المشكلات تستمر بسبب **استقرار أنماط التفاعل** وليس بسبب شدتها أو تاريخها.

كما يفترض النموذج أن التغيير لا يتطلب بالضرورة وعيًا أو استبصارًا عميقًا، بل يمكن أن يحدث من خلال تعديل بسيط في تسلسل التفاعل. ويُضاف إلى ذلك افتراض مفاده أن محاولات الحل المتكررة من طرف الأسرة غالبًا ما تصبح جزءًا من المشكلة نفسها.

ثالثًا: المفاهيم المركزية في النموذج التفاعلي (شرح مفصّل)

من المفاهيم الأساسية في النموذج التفاعلي مفهوم **التفاعل**، الذي يُنظر إليه كسلسلة من الأفعال وردود الأفعال المتبادلة بين أفراد الأسرة. ولا يُفسَّر السلوك بمعزل عن السياق الذي يحدث فيه، بل يُفهم بوصفه حلقة ضمن سلسلة تفاعلية.

ويرتبط بذلك مفهوم **السببية الدائرية**، حيث يُرفض التفسير الخطي القائم على السبب والنتيجة، ويُستبدل به فهم دائري يرى أن كل فرد يسهم في الحفاظ على النمط التفاعلي القائم. ويُعد هذا المفهوم أساسيًا في تجاوز منطق اللوم داخل العلاج.

كما يحتل مفهوم **التغذية الراجعة** مكانة محورية، إذ تفسر كيف يتم تعزيز السلوكيات المتبادلة داخل النسق. فالتغذية الراجعة السلبية تحافظ على الاستقرار، بينما تسمح التغذية الراجعة الإيجابية بإحداث التغيير.

ومن المفاهيم المهمة أيضًا **محاولات الحل**، التي تشير إلى الاستراتيجيات التي تعتمدها الأسرة للتعامل مع المشكلة. ويرى النموذج التفاعلي أن استمرار المشكلة يعود غالبًا إلى الإصرار على استخدام محاولات حل غير فعّالة.

رابعًا: فهم الأعراض النفسية في ضوء النموذج التفاعلي (تفصيل معمّق)

في إطار النموذج التفاعلي في العلاج الأسري الاستراتيجي، يُعاد تعريف العرض النفسي أو السلوكي بوصفه ظاهرة علائقية ناشئة داخل شبكة من التفاعلات المتكررة، وليس تعبيرًا عن اضطراب داخلي ثابت لدى فرد بعينه. فالعرض لا يُفهم بمعزل عن السياق الأسري، بل يُنظر إليه كجزء فاعل في تنظيم العلاقات والحفاظ على توازن النسق.

يُفترض أن العرض يؤدي وظيفة نسقية محددة، قد تكون ظاهرة أو ضمنية. ففي كثير من الحالات، يعمل العرض على تخفيف توتر كامن بين الوالدين، أو على إعادة توجيه الصراع نحو فرد واحد (غالبًا الطفل أو المراهق)، مما يسمح للأسرة بالحفاظ على تماسكها الظاهري. وبهذا المعنى، لا يُعد العرض مشكلة بحد ذاته، بل حلًا تكيّفيًا داخل نسق مأزوم.

كما يُفهم العرض بوصفه رسالة تواصلية غير مباشرة تعبّر عن خلل في نمط التفاعل، خاصة عندما تفشل القنوات التواصلية المباشرة. فالسلوك الإشكالي قد يكون الشكل الوحيد المتاح للتعبير عن رفض، أو طلب، أو احتجاج داخل الأسرة.

ويركّز النموذج التفاعلي كذلك على مفهوم استمرارية العرض، حيث يُعزى استمرار المشكلة إلى نمط الاستجابات الأسرية لها. فمحاولات الضبط، الحماية الزائدة، أو المواجهة المتكررة قد تؤدي دون وعي إلى تعزيز العرض بدل إضعافه. ومن هنا، يُنظر إلى الأسرة بوصفها شريكًا غير مقصود في الحفاظ على المشكلة.

خامسًا: التدخلات العلاجية في النموذج التفاعلي (تفصيل إكلينيكي)

تنطلق التدخلات العلاجية في النموذج التفاعلي من مبدأ أساسي هو كسر تسلسل التفاعل القائم، وليس القضاء المباشر على العرض. ويعمل المعالج على تحديد الحلقة التفاعلية التي تسبق ظهور العرض وتليه، ثم يتدخل عند نقطة استراتيجية تسمح بإحداث تغيير في المسار.

من أبرز التدخلات المستخدمة توجيه الأسرة إلى تعديل استجابتها المعتادة تجاه السلوك الإشكالي، سواء عبر تقليل المراقبة، أو تغيير أسلوب المواجهة، أو إعادة توزيع الأدوار داخل النسق. ويُعد هذا التغيير غالبًا بسيطًا في شكله، لكنه عميق الأثر من حيث نتائجه.

كما يستخدم المعالج التدخلات المفارقة، حيث يُطلب من الأسرة أحيانًا الاستمرار في السلوك الإشكالي أو المبالغة فيه ضمن شروط محددة. ويهدف هذا النوع من التدخل إلى زعزعة منطق المشكلة وكشف طبيعتها التفاعلية، إضافة إلى تقليل المقاومة العلاجية.

وتشمل التدخلات أيضًا إعادة الصياغة التفاعلية للمشكلة، بحيث يُعاد تقديم العرض للأسرة بوصفه نتيجة طبيعية لنمط تفاعل معيّن، لا كدليل على خلل فردي. ويساعد هذا الأسلوب على تخفيف اللوم وفتح المجال لتعاون علاجي أكبر.

ويركّز المعالج في جميع تدخلاته على الحاضر وعلى ما يحدث داخل الجلسة، مستثمرًا التفاعلات الجارية بوصفها نموذجًا مصغّرًا للتفاعلات الأسرية اليومية. ومن خلال هذا العمل الدقيق، يُتاح للأسرة اختبار نمط تفاعلي بديل يمهّد لتغيير مستدام. فقد يعمل العرض على تنظيم العلاقة بين الوالدين، أو على الحفاظ على توازن نسقي هش.

ويُفهم العرض أيضًا بوصفه رسالة تواصلية تعبّر عن خلل في العلاقة، ما يجعل التدخل العلاجي موجَّهًا نحو تعديل نمط التفاعل بدل التركيز على إزالة العرض فقط.

خامسًا: دور المعالج في النموذج التفاعلي

يلعب المعالج دور الملاحظ الاستراتيجي الذي يسعى إلى فهم تسلسل التفاعلات، وتحديد النقاط التي يمكن التدخل فيها لإحداث تغيير. ولا يتبنى المعالج موقفًا تفسيريًا أو تحليليًا معمّقًا، بل يركز على توصيف ما يحدث هنا والآن داخل الجلسة.

كما يعمل المعالج على إعادة صياغة المشكلة بلغة تفاعلية، تساعد الأسرة على رؤية مساهمتها في استمرارية النمط القائم دون توجيه اللوم لأي فرد.

سادسًا: التدخلات العلاجية المرتبطة بالنموذج التفاعلي

تعتمد التدخلات العلاجية في النموذج التفاعلي على كسر تسلسل التفاعل القائم، من خلال إدخال سلوك جديد أو تغيير توقيت الاستجابة. وقد يتم ذلك عبر توجيهات علاجية، أو تدخلات مفارِقة، أو إعادة تنظيم الأدوار داخل الأسرة.

ويحرص المعالج على أن تكون التدخلات بسيطة، محددة، وموجهة بدقة، بما يسمح للأسرة بتجربة نمط تفاعلي مختلف يفتح المجال لتغيير أوسع.

سابعًا: مجالات تطبيق النموذج التفاعلي

يُستخدم النموذج التفاعلي في علاج المشكلات السلوكية لدى الأطفال، والصراعات الزوجية، واضطرابات التواصل داخل الأسرة. كما يُعد فعالًا في التدخلات القصيرة المدى وفي الحالات التي تتسم بمقاومة عالية للتغيير.

ثامنًا: حدود وانتقادات النموذج التفاعلي

رغم فعاليته، يُنتقد النموذج التفاعلي أحيانًا لكونه يركز على التفاعل الظاهر على حساب العوامل الانفعالية العميقة أو التاريخ الشخصي. كما يتطلب مستوى عاليًا من المهارة الإكلينيكية لتحديد نقاط التدخل المناسبةيمثل النموذج التفاعلي في العلاج الأسري الاستراتيجي مقاربة عملية وفعالة لفهم المشكلات الأسرية والتدخل فيها، من خلال التركيز على التفاعل بدل الفرد. ويُعد من النماذج الأساسية التي ينبغي على الأخصائي النفسي العيادي إتقانها، لما يوفره من أدوات تحليلية وتدخلية قائمة على منطق نسقي دقيق.

Nichols, M. P., & Davis, S. D. (2020). *Family therapy: Concepts and methods* (12th ed.). Pearson.

Goldenberg, H., & Goldenberg, I. (2021). *Family therapy: An overview* (10th ed.). Cengage Learning.